العلاقة بين الفلسفة والدين من حيث الغاية

قد يرى البعض أن غاية الدين والفلسفة غاية واحدة، حيث إنهما يبتغيان معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية في الآجل والعاجل. أي إن هدفهما واحد وهو الوصول إلى الحق وإدراك الحقيقة. بل إن البعض يرى أن الغاية الأساسية من الفلسفة هي الوصول إلى توحيد معقول بين العلم والعقيدة عن طريق ميتافيزيقا قائمة على منهج علمي وأسس علمية، فديكارت مثلا يرى أن الغرض الأول من الفلسفة تحصيل العلم التام بما يمكن العلم به، وأن هذا يقتضي الكشف عن مبدإ أول أعلى ممكن أن يستنبط منه ـ بطريقة قياسية ـ كل حقيقة من حقائق العلم.

ويعرف كرستيان فولف (C. Wolff ١٦٦٩ـ ١٧٥٤) الفلسفة بأنها العلم بالممكن من حيث ما يمكن تحققه بالفعل. وهو يرى كذلك أن مهمة الفلسفة هي الوصول إلى أعم المبادئ التي يمكن استنتاج العلم منها. ولا يختلف كانط عن ذلك كثيرا في تعريفه للفلسفة بأنها المعرفة النظرية المستمدة من المعاني الذهنية، ولا فخته الذي يقول إن الفلسفة هي علم المعرفة، ولا هيجل الذي يعرف الفلسفة بأنها البحث في المطلق أو ما يراه ويؤكده الفيلسوف الأمريكي المعاصر جوزايا رويس من أن الدين والفلسفة هدفهما واحد، ويواجهان نفس الصعوبات والمشكلات. إذ يعاني كل منهما من سوء الفهم وغموض الهدف، وعدم فهم الإنسان العادي لقيمتهما ووظيفتهما الحقيقية. ويتفق جوهر الفلسفة مع أعمق ما جاء في الأديان.

ومع التسليم بصحة هذه الرؤى التي توحد بين غاية الفلسفة وغاية الدين معا، إلا أنه يمكن الوقوف على العديد من جوانب الختلاف بين غاية الدين وغاية الفلسفة.

وأول هذه الاختلافات وأهمها: أن غاية الفلسفة المعرفة وغاية الدين الإيمان، ومطلب الفلسفة فكرة جافة ترتسم في صورة جامدة، ومطلب الدين روح وثابة وقوة محركة، فالفيلسوف يحركه في الأساس شوقه إلى المعرفة، وهو في الأغلب لا يهتم إلأقل القليل بانسجام معارفه مع آماله وأمانيه البشرية المتأصلة أو عدم انسجامها، فالهم الأساسي للفيلسوف هو الوصول إلى الحقيقة حتى لو كانتالنتائج مقلقة أو غير مريحة وتدخله في أزمات نفسية أو اجتماعية.

فالمعرفة الخالصة هي الهدف الأسمى الذي يسعى إليه الفيلسوف دون النظر إلى النتائج المتحققة من وراء كشف هذه الحقيقة، أو إعطائها أهمية كبرى. أما الدين فهدفه الأول الإيمان وإعطاء المؤمن به المسلم بما فيه، والعامل وفقا لتعاليمه الملتزم بأوامره ونواهيه، أكبر قدر من الإحساس بالأمان والطمأنينة في حاضره الدنيوي ومستقبله الأخروي، وهذا ما يجعل للدين الأهمية المباشرة في حياة الناس، فهو سبيلهم إلى الراحة العقلية، والطمأنينة النفسية في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى .

وهذا ما يحيلنا إلى اختلاف آخر بين غاية الفلسفة وغاية الدين، فغاية الفلسفة نظرية حتى في قسمها العملي، وغاية الدين عملية حتى في جانبه النظري. فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير، ما هما؟ وأين هما؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحق الذي تعرفه والخير الذي تحدده، فالفلسفة إيضاح مستمر للحقيقة وللممكن الأفضل. وهذا يعود بنا إلى نشأة الفلسفة عند اليونان القدماء حيث أعلوا من قيمة النظر على العمل علو ا كبيرا، وجعلوا شرف العلم رهينا ببعده عن القواعد العملية، بل عن الأشياء الواقعية. في حين يبقى الدين ليعرفنا الحق ل لنعرفه فحسب، بللنؤمن به ونحبه ونمجده، ويعر فنا الواجب لنؤديه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه.

ومن ثم تبقى الفلسفة تبعا لغايتها مقطوعة الصلة بأية نتيجة عملية في الواقع المعيش، في حين يشغل الدين هذا الواقع بكل فضاءاته. حيث تكون أول الآثار العملية للفكرة الدينية هو لفتها شعور المتدين إلى صلة بينه وبين الحقيقة العليا التي يدين لها، وهي صلة تقوم في جوهرها على معنى الإلزام واللتزام الأدبي بينهما. في حين أن الفلسفة من حيث هي فلسفة تستطيع أن تعيش من غير اعتراف بهذه الصلة. ذلك أن غاية الفيلسوف من ربط الأسباب بمسبباتها هو فهمه للأشياء على وجه منطقي معقول. وهي غاية آلية خارجية، لا يتبادل فيها الخطاب، ولا تتناجى فيها الأرواح، ولا يتجه فيه العبد إلى الرب بالمحبة والتبجيل، والخشية والتأميل، وما إلى ذلك من المعاني التي لا يتحقق مفهوم الدين من دونها، إذ الدين ليس إيمانا ومعرفة فحسب، بل هو فوق ذلك التفات روحي متبادل، هو رباط من الطاعة والولاء، ومن الحدب والرعاية، بين المتدين والحقيقة العلوية التي يؤمن بها.

والحقيقة أن هذا التمييز الغائي بين الفلسفة والدين يبدو متجنيا على الفلسفة إلى حد كبير، إذ إنه ينتزع كل فائدة عملية عن الفلسفة، بل ويسجن الفلسفة ذاتها في برج عاجي، ويصورها كترف عقلي يلجأ إليه الذين لا يجدون ما يشغلهم. فصاحب هذا التمييز يغض الطرف عما فعله سقراط بفلسفته في مواجهة خطر السوفسطائيين وإعادة الثقة إلى نفوس الشباب في أثينا. كما يتناسى الدور الفلسفي والفكري الكبير الذي لعبه أبو حامد الغزالي (١١١١م) في معالجة الانحرافات التي بدأت تنتشر في عصره، ونشر الدعوة إلى غرس الإيمان بين الشباب وتحفيزهم على التمسك بأصول الدين.

كما يغفل دور الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت مل J. S. Mill (١٨٠٦- ١٨٧٣) الذي ساهم بإيجابية في تطوير إنجلترا في القرن التاسع عشر اقتصاديا وسياسيا من خلال نظرياته الفلسفية عن الحرية والمنفعة العامة التي انعكست آثارها في المجتمع. أو ما وضعه وليم جيمس W. Games (١٨٤٢- ١٩١٠) وزملاؤه البرجماتيون من قيم برجماتية تتمسك بها الوليات المتحدة الأمريكية القوة الأكبر في العالم الراهن.

ولتقديم صورة تتحاشى ذلك التجني فإنه يمكننا الحديث عن نوع من التكامل الغائي بين الفلسفة والدين، إذ إن الفلسفة تهتم بمخاطبة العقل، والدين يتغيى التأثير في الوجدان. وبالعقل والوجدان يستطيع الإنسان رسم طريقه للخلاص في الدنيا والآخرة، مبتعدا عن تقديس المدنس أو تدنيس المقدس. ولذلك كانت دعوة الدين الإسلامي إلى جعل التفكر والتدبير العقلي من قبيل الفريضة الدينية حتى يشبع الإنسان نداء العقل والوجدان معا ويحصل على السعادة في الدنيا والآخرة.